

ت. النشر: 30 - 06 - 2025	ت. القبول: 25 - 11 - 2024	ت. الارسال: 13 - 10 - 2024
--------------------------	---------------------------	----------------------------

أوضاع مسلمي صقلية أثناء رحلتي ابن حوقل (362هـ/972م) وابن جبير (581هـ/1184م) The Situation of Muslims in Sicily during the Journeys of Ibn Hawqal (362 AH/972 AD) and Ibn Jubayr (581 AH/1184 AD)

بوجمعة جهيدة 

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، الجزائر

boudjemaa.djahida@univ-oran1.dz

الملخص:

لقد وصلنا من الرحالة العرب والمسلمين شهادتان مهمتان عن أوضاع مسلمي صقلية، الأولى من الرحالة الجغرافي ابن حوقل الذي دخلها في (362هـ/972م) وكان لا يزال المسلمون يحكمون الجزيرة تحت السلالة الكلبية العربية التي عينها الفاطميون مكافأة لوفائهم ومساعدتهم لها في تثبيت أركانها في المغرب الإسلامي، والثانية من الرحالة الأديب ابن جبير الذي دخلها في (581هـ/1184م) في عهد الملك غليام الثاني، وكان المسلمون قد خضعوا تحت سيطرة النورمانديين. لقد وجّه ابن حوقل لمسلمي صقلية نقداً لاذعاً واثقاً بقرب نهاية دولتهم؛ حيث وصفهم بأبشع الصفات، منها: عدم التجانس والتجاور بينهم لشدة العصبية القبلية بين اليمنيين والمضريين، وكثرة الصراع والتنافس بين العرب والبربر. كما أنهم اعتادوا على خلع السلاطين والخروج عن طاعتهم، ووصفهم أيضاً بقلّة الفطنة والفهم والنظافة؛ وبكثرة النفاق والرياء، والجهل والكسل؛ فمعظم احتياجاتهم الغذائية كانت تُستورد من خارج الجزيرة رغم وفرة مياها.

أما ابن جبير، فلحسن الحظ أن مقامه في صقلية طال ثلاثة أشهر بسبب الأوضاع الجوية التي منعت إبحاره، ما مكنه من زيارة العديد من الأماكن، ورصد معاناة من بقي فيها من المسلمين. فعلى الرغم من عقود الصلح والحماية والتسامح التي عقدها النورمانديون مع المدن الكبرى التي دخلوها، جعلوا من استسلم من القرى والأرياف عبيد أرض تحت الإقطاعيين والنبلاء. لاحقاً، أضى كل المسلمين عبيداً، يعيشون تحت ضغط يخيّرهم بين التنصير أو الهجرة شمل حتى الأعيان منهم، ما جعل ابن جبير وهو الشاعر الأديب يبكي لمعاناتهم، ويكثر الدعاء على الملك في سره وجهره، وما أن خرج من الجزيرة حتى انفجرت الأوضاع بمذابح شنيعة.

يتمحور البحث حول عرض أوضاع مسلمي صقلية أثناء رحلتي ابن حوقل وابن جبير. أما الهدف منه فهو سبر أغوار تاريخ صقلية الإسلامي، واستخلاص العبر منه. وقد اعتمد في ذلك على كل من المنهج التاريخي، المنهج الوصفي والمنهج الاستقرائي.

تتمثل إشكالية البحث في واقع الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمسلمي صقلية أثناء رحلة ابن حوقل في (362هـ/972م)، وأثناء رحلة ابن جبير في (581هـ/1184م)؟ وقد اعتمدنا على مادة أساسية في الدراسة تتمثل في مصنف المسالك والممالك، وصورة الأرض لابن حوقل، ومصنف ورحلة ابن جبير لابن جبير الكناي.

وخلصنا بعد الدراسة إلى جملة من النتائج وهي أن مسلمو صقلية كانوا متجانسين أثناء رحلة ابن حوقل، فكانت هناك عصبية قبلية بين اليمنيين والمضريين، وصراعات بين العرب والبربر، كان لكل عنصر منهم قرى وأحياء خاصة، بل لا يجتمعون في مسجد واحد للصلاة، فكان كل واحد يبني مسجده الخاص له ولأسرته، كما كانوا يعارضون سلاطنتهم، ويرفضون سياساته، وينافقون في تدينهم، ولا يجتهدون في عمل ولا علم مما كان ينذر بسقوط دولتهم منذ دخولهم صقلية. ولم يسن النورمانديون سياسة واحدة مع مسلمي صقلية، فالمدن الكبرى التي حاربهم أبرموا معها

ميثاق صلح يتضمن الحماية والحرية الدينية، أما المناطق التي استسلمت فقد جعلوا سكانها عبيداً بيعوا في أسواق إيطاليا، وجعلوا المزارعين ومزارعهم عبيد أرض، ملكاً للإقطاعيين والنبلاء، لكن ابن جبير وجد كل ما تبقى من المسلمين في صقلية عبيداً تحت سلطة النورمانديين حتى أعيان بلرم. كما لم يستعمل النورمانديون المسلمين في الوظائف والجند لتسامحهم، ولم يحافظوا على الصبغة الإسلامية العربية حباً لها، بل كانوا براغماتيين مستغلين، يهدفون لتثبيت دولتهم الفتية فحسب، ولما وصلوا لهدفهم زاد ضغطهم على المسلمين الذين أصبحوا أمام خيارين أحلاهما مرّ، إما التنصير أو التهجير.

الكلمات المفتاحية: صقلية؛ ابن حوقل؛ ابن جبير؛ المسلمون؛

Abstract:

The situation of Muslims in Sicily is addressed by two significant testimonies: the first is by the geographer traveler Ibn Hawqal, who visited it in the year (972 AD/362 AH) during the rule of the Arab Kalbid Dynasty loyal to the Fatimid Caliphate, and the second is by Ibn Jubayr, the famous traveler who reached it in the year (1184 AD/581 AH) during the reign of King William II, when the Normans took control of the island.

Ibn Hawqal directed harsh criticism towards the Sicilian Muslims, predicting the imminent collapse of their rule. He described them with the worst traits, namely: their lack of unity and cohesion due to the intense tribal rivalry between the Yemenis and the Mudharis, the conflict and competition between the Arabs and Berbers, and their tendency to rebel against each other and overthrow their rulers. He also described them with other bad traits, notably: lack of understanding, intelligence, and sanitation, as well as being predominantly hypocritical, deceitful, ignorant and lazy. Moreover, whilst the abundant water resources on the island, they relied heavily on imported food.

Fortunately, bad weather conditions forced Ibn Jubayr to stay in Sicily for three more months, allowing him to visit many other places on the island, and observe the conditions of the remaining Muslims there: firstly, the Normans granted the population of main cities protection and peace; on contrary to the inhabitants of other areas, who were enslaved. Ultimately, slavery was forced upon all Muslims, including the nobles, leaving them with only two options either converting to Christianity or deportation. This deeply affected Ibn Jubayr, who mourned their suffering and cursed the king both secretly and openly. Soon after his departure, horrendous massacres against the island's Muslims erupted.

This study addresses the conditions of Muslims in Sicily as reported in the testimonies of Ibn Hawqal and Ibn Jubayr. It aims to explore the history of Muslim Sicily and draw lessons from it. The study relied on the historical, descriptive, and inductive method.

The study aims to answer the following research question: How were the political, economic, and social conditions of the Muslims in Sicily during the journeys of Ibn Hawqal and Ibn Jubayr? As for the main materials relied upon in the study, they are: "The Book of Roads and Kingdoms" and "The Book of the Earth" by Ibn Hawqal, as well as "The Book and Journey of Ibn Jubair" by Ibn Jubayr al-Kinani. The study's results include the following points:

- Muslims of Sicily suffered from internal divisions that weakened their rule.
- Initially, the Normans granted Muslims limited religious freedoms, but eventually enslaved or compulsorily displaced them.
- The Normans' tactic was pragmatic, aiming to strengthen power rather than preserve the Arab Islamic identity, as their strategy gradually changed from coexistence to persecution.

Key words: Sicily; Ibn Hawqal; Ibn Jubayr; Muslims;

مقدمة

لقد وصلنا من مصنفات الرحالة العرب والمسلمين شهادتان مهمتان عن أوضاع مُسلمي جزيرة صقلية الإسلامية، الذين لم يلتفت إليهم المؤرخون لاهتمامهم بالفتح الإسلامي ومراحلته التاريخية والتطور السياسي والعسكري فيها، وفقدوا في الغالب تسلسل الأحداث التاريخية. بالنسبة للشهادة الأولى فهي للرحالة ابن حوقل الذي دخلها في (362هـ/972م) وكانت فيها الجزيرة تحت حكم إمارة إسلامية تقودها سلالة بني كُليب العربية، أما الشهادة الثانية فهي للرحالة الأديب الأندلسي ابن جُبير الذي دخل الجزيرة في (581هـ/1184م) وكان الحكم الإسلامي فيها قد انتهى، لكن المسلمين كانوا لا يزالون يعيشون فيها تحت حكم النورمانديين المسيحيين، فعبرت هاتان الشهادتان عن ظرفين مختلفين عاشهما المسلمون: ظرف كانوا فيه أصحاب الزمان والمكان، وظرف كانوا يستعدون فيه للأسوأ بعد أن أفلت دولتهم.

تبرز أهمية هذه الدراسة في كونها تتناول موضوعاً يسלט الضوء على واقع المجتمع الصَّقَلِيّ المسلم خلال مرحلتين زمنيتين مختلفتين؛ إذ تهدف إلى كشف أحواله أثناء حكم المسلمين وفقاً لما نقله ابن حوقل في رحلته إلى الجزيرة، ثم إلى أحواله تحت حكم النورمانديين المسيحيين بعد سقوط الحكم الإسلامي فيها وفقاً لما نقله ابن جبير.

بناء على ما تقدم، نطرح الإشكالية التالية: كيف كانت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمسلمي صقلية أثناء رحلة ابن حوقل في (362هـ/972م) وأثناء رحلة ابن جبير في (581هـ/1184م)؟

لتوضيح هذه الإشكالية، يتعين طرح أسئلة فرعية تتمثل في الآتي: هل كان الوضع يُنذر بسقوط الدولة الإسلامية في صقلية أثناء رحلة ابن حوقل؟ هل كانت عوامل سقوط الدولة الإسلامية في صقلية واضحة منذ فتح المسلمين لها؟ ماهي التطورات التي شهدتها صقلية ومحيطها من القرن (4هـ/10م)، زمن رحلة ابن حوقل، إلى القرن (6هـ/12م) زمن رحلة ابن جبير؟ كيف تَغَلَّب النورمانديون على المسلمين في صقلية وما هي السياسات التي سنَّوها معهم؟ هل كانت سياسة النورمانديين مع المسلمين سياسة تسامح ديني فعلاً، أم كانت سياسة براغماتية تدعو لاستغلالهم - المسلمين - لتثبيت دولتهم الفتية؟

لغرض الإجابة عما سبق، اعتمدنا في بحثنا على المنهج التاريخي الاستردادي الذي يساعدنا على جمع البيانات وتقديمها بأسلوب موضوعي، ووصف الماضي، وتحديد واقعه. وعلى المنهج الوصفي الذي يستخدم في الدراسات الإنسانية بمختلف فروعها، وهو المنهج الذي يصف المبحوث كما هو في الواقع حسب ما وصلنا في المصادر والمراجع، وأيضاً على المنهج الاستقرائي الذي يهتم بالجزئيات وتحليلها للوصول للنتيجة. كما تم معالجة هذا الموضوع ضمن محورين: تناول أولهما أوضاع مسلمي صقلية أثناء رحلة ابن حوقل، أما الثاني فقد تطرق إلى أوضاعهم خلال رحلة ابن جبير.

جدير بالذكر أن الدراسات¹ على عمومها اهتمت بالحديث عن الفتوحات الإسلامية في صقلية وتوالي الحكم الإسلامي فيها، وهي دراسات عديدة ومتكررة المادة، لم يأخذوا من شهادتي ابن حوقل وابن جبير إلا ما يخدم بحوثهم وأيديولوجياتهم، بل إن بعضهم لم يأخذ إلا الإيجابيات من الأوصاف واعتبروا ابن حوقل - بالأخص - متحاملاً على مسلمي صقلية لأنه قدّم نقداً لاذعاً وانطباعات سيئة عنهم، فنجد بعض هذه الدراسات تلومه عليها مثل ما أورده حوالة يوسف في دراسة مُعنونة بـ « ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للجناح الغربي من الدولة الإسلامية »، الذي يقول فيها أن حديث ابن حوقل عن الأندلس وصقلية، ولا سيما فيما يتصل بانطباعاته التي كوّنها عن صقلية، هي الاتهامات التي تحامل فيها على أهل الجزيرة كثيراً، فإن الذي يهمننا منها هو مدى انسجامه مع نفسه فيما رسمه لها من قيودات توثيقية (حوالة، 1992: 21)، وكذلك إحسان عباس في كتابه المعنون بـ « العرب في صقلية دراسة في التاريخ والأدب »؛ حيث يقول أنه ليس من الضروري أن نصدق ابن حوقل في كل ما يقوله لأنه يصوّر أخلاق قوم كرههم، فليس من السهل أن نأخذ ما يقوله في هذه الناحية بتسليم، وبخاصة لأنه يتحدث عن أمور اعتمد في تصويرها على الشعور، فأشبه ذلك الشاعر الذي يهجو، ثم إن الأخلاق نسبية تتغير من إقليم إلى إقليم، ولا شك أنه كانت بين العراق وصقلية فوارق في الحياة الاجتماعية جعلت ابن حوقل يكره من صقلية ما لم يكن عراقياً بالصبغة (إحسان، 1975: 75).

أما عن رحلة ابن جبير لصقلية فلقد وردت في كُتب المؤرخين الذين يبحثون في الفتوحات والذين أخذوا ما يُغري أيديولوجياتهم، فركزوا مفتخرين بالطابع الإسلامي العربي الذي كان في عهد النورماندين، ولم ينتهوا إلى أن النورماندين استغلوا المسلمين لتثبيت دولتهم الفتية فقط، وأن المسلمين من كل الطبقات كانوا يعانون التمييز والقهر، من هؤلاء المؤرخين: شوقي أبو خليل في كتابه « فتح صقلية بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات »، وأحمد توفيق المدني في « المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ».

1. أوضاع مسلمي صقلية أثناء رحلة ابن حوقل

لم يكن الرحالة الجغرافيون العرب والمسلمون كالمؤرخين العاديين الذين يقبعون في بيوتهم ويلملمون المادة من الكتب والوثائق التي تصلهم بل كانوا كالمراسلين الصحفيين الذين يذهبون لعين المكان يتجولون ويحلّلون ويعطون لنا صوراً تكاد تكون ناطقة رغم اختلاف الزمان والمكان، ومن بين هؤلاء كان الرحالة الجغرافي ابن حوقل الذي دخل صقلية في عهد حكم أسرة بني كليب، وتجول فيها، وعاشر أهلها ووصفهم بدقة شديدة. يقسم هذا العنوان إلى عنوانين فرعيين، أولهما يهتم بتعريف ابن حوقل وبرحلته إلى صقلية، أما الثاني فيستعرض صوراً من أوضاع مسلمي صقلية أثناء رحلة ابن حوقل.

¹ عزيز أحمد. (1980). تاريخ صقلية الإسلامية. طرابلس الغرب، أحمد توفيق المدني. (د. ت) المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا. الجزائر. المطبعة العربية، شوقي أبو خليل. (1998). فتح صقلية بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات. بيروت. دار الفكر، رمضان أحمد. (2007). الرحلة والرحالة المسلمون. القاهرة. دار البيان العربي.

1.1. التعريف بابن حوقل ورحلته إلى صقلية

يعدُّ أبو القاسم محمد ابن حوقل² من أشهر رحالة العرب والمسلمين، يُعرف بالنصبي كراتشكوفسكي، (1957: 300) أو الموصلي، أو البغدادي (الزركلي، 1980، 8: 111)، وذلك لأن الروايات لم تُحدد مكان ولادته وتاريخها الذي كان حتماً في العراق (ق 4هـ/10م)، كما اختلفت في تحديد تاريخ وفاته أيضاً. فهناك مَنْ أعلن أن وفاته كانت في (350هـ/960م) (حاجي، 1990: 1664)، وهذا غير معقول وذلك لأن ابن حوقل نفسه يذكر أنه في (362هـ/972م) في شهر رجب كان بصقلية (ابن حوقل، 1992: 122)، كما أن هناك مَنْ أعطى تاريخاً معقولاً وهو (367هـ/977م) (الزركلي، 1980: 111) وهذا التاريخ هو السنة التي دون فيها ما جمعه من رحلته (المنوني، 2014: 24)، بل أن هناك مَنْ أشار أن ابن حوقل توفي (380هـ/990م) (آقابرزك، 1983: 377).

لقد استقر ابن حوقل في مدينة بغداد، واشتغل فيها بالتجارة، وواصل تعليمه فيها أيضاً، فقد درس اللغة العربية والأدب والتاريخ والجغرافية، واهتم بكتاب ابن خرداذبة «المسالك والممالك»، وكتاب قدامة بن جعفر «الخراج وصناعة الكتابة»، وكتاب «المسالك والممالك» للأصطخري الذي التقى به في إحدى عوداته لبغداد في (340هـ/951م) وطلب منه أن يراجع كتابه، وأن يعيد النظر في خرائطه (الإيبش، والشهابي، 1998: 191)، وهذا ما حدا بالكثير من المؤرخين إلى أن يقولوا كلمتهم في مصنف ابن حوقل، ويعتبروه صورة ثانية لكتاب الأصطخري مع زيادات آتية من دراساته ومشاهداته الخاصة التي اكتسبها أثناء رحلته (كراتشكوفسكي، 1957: 201) (عواد، 1939: 1780).

لقد بدأ بن حوقل ترحاله في سنة (331هـ/942م) (كراتشكوفسكي، 1957: 300)، في هذه السنة كان الرحالة الكبير العراقي المسعودي قد أنهى رحلاته الذي جاب فيها الشرق والغرب واستقر في الفسطاط بمصر ليؤلف كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر (بوجمعة، 2024: 55)، وبهذا يمكننا اعتبار ابن حوقل خليفة للرحالة المسعودي مع أن مساحة رحلاته كانت أضيق، وكان أقل علماً من المسعودي، فابن حوقل كان تاجراً أولاً، يمتن البيع والشراء ومن بعدها يُسجل أحوال البلدان والأقاليم والسكان ... في المناطق التي يزورها، كما أنه لم يصل درجة التنظير كما هو حال المسعودي، ولذلك نجد ياقوت الحموي قد ذكره إلا أنه لم يعتمد عليه عالماً جغرافياً له شأن (ياقوت، 1993: 369)، بل أننا نجد أن ابن حوقل أورد بعض الأفكار التي تبدو غريبةً وساذجةً، كقوله أن «عماد ممالك الأرض أربع: فأعمرها وأكثرها خيراً وأحسنها استقامةً في السياسة وتقويم العمارات ووفور الجبايات مملكة إيران شهر، وقطبها إقليم بابل، وهي مملكة فارس» (ابن حوقل، 1837: 9)، ولم يعرف أن إيران شهر يُقصد بها مدينة فقط، وأن إقليم بابل كان تابعاً للعراق، وكقوله أيضاً أنه لم يَزُرْ بعض المناطق لأنها على غير دين وثقافة ولغة، وهذا غريب من جغرافي يكتشف العالم «لم أذكر بلدان السودان في المغرب والبُجة والزنج لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب

² الحوقل في اللغة : اعتمد بيديه على خصره. والحوقلة : سرعة المشي ومقاربة الخطو. والحوقل : الشيخ المسن. (ابن منظور، د.ت.: 161).

والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء مهملون في هذه الخصال، ولا حظّ لهم في شيء من ذلك فيستحقون به أفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك» (ابن حوقل، 1837: 10).

لقد حصر ابن حوقل اهتمام رحلاته في الوصف والدراسة على البلاد الإسلامية وخاصة إيران، وكان من أهم رحالة المشرق الإسلامي الذين رحلوا لغربه وكتبوا عنه، ويجب الاعتراف بأنه كان الخبير الأول من بين جغرافي المشرق بشئون المغرب الإسلامي (كراتشكوفسكي، 1957: 204).

لقد بدأ ابن حوقل رحلته من بغداد وزار العراق ثم إيران وبلاد الهند وعاد لبغداد لينطلق إلى بلاد العرب، وتحديدًا الأحساء، ثم الشام، ثم مصر، ثم بلاد المغرب، وبلاد السودان الغربي، ثم الأندلس ثم صقلية³ (كراتشكوفسكي، 1957: 217)، ورأى أبو الفدا أن كتاب ابن حوقل مطوّل، ذكر فيه صفات البلاد مستوفياً، غير أنه لم يضبط الأسماء، وكذلك لم يذكر الأطوال ولا العروض، وصار غالب ما ذكره مجهول الاسم والبقعة، ومع جهل ذلك لا تحصل فائدة تامّة (أبو الفدا، 1840: 1).

ذكر البعض أن ابن حوقل كان شيعياً إسماعيلياً وظّفته الدولة الفاطمية للتجسس لصالحها ونشر دعوتها (Garcin; 1983: 79)، بل نال حظ الفاطميين أثناء نزوله بين ظهرانهم، فسوّّلوا له شؤون رحلته وتجارتها، وقد تمخضت هذه العلاقة عن تبادل الثقة، فوجدوا فيه خير مثال للدعاية، وهو الرحالة الشهير الذي يجوب بلدان الأرض، فينشر دعوتهم على أحسن ما يرام (عواد، 1939: 1779)، بل راح أحدهم يعتقد أن الخليفة الفاطمي العزيز هو الذي كلّفه بإصلاح كتاب الأخطري (المشري، 1998: 123)، غير أن كراتشوفسكي لا يعتقد ذلك ويرى أنه قد أتهم بذلك لأنه كان من الأوائل الذين قدموا معلومات وفيرة عن الفرقة الشيعية الإسماعلية المعروفة بالقرامطة في البحرين الذي كان قد عرفهم جيداً وعن كتب (كراتشوفسكي، 1957: 204).

يُحيط بمخطوطات كتاب ابن حوقل الكثير من اللبس، طُبِع الكتاب من مخطوطين مختلفين في بعض المعلومات، أما الطبعة الأولى طبعة ليدن، فقد قام بها المستشرق الهولندي دي غويه *de Goeje* (1837م)، والملاحظ أن ابن حوقل لم يختر عنواناً لمصنفه، فأسماه دي غويه «الممالك والممالك» اختصاراً لتعريف ابن حوقل لمصنفه الذي جاء فيه في أول صفحة من الكتاب (ابن حوقل، 1837: 4)، وهذه المخطوطة كان قد أهداها ابن حوقل للأمير الحمداني سيف الدولة ت (356هـ/967م) (كراتشكوفسكي، 1957: 201). أما الطبعة الثانية فلقد نشرها المستشرق كريمرز *Kramers* في (1938م) في ليدن أيضاً اعتماداً على مخطوطة وُجِدَت باسطنبول التي يرجع تاريخها إلى (479هـ/1086م)، أي بعد وفاة ابن حوقل، وبعد تأليف الكتاب بحوالي مائة سنة، أطلق عليها اسم صورة الأرض (ابن حوقل، 1992: 6) من العبارة التي وردت في المقدمة: «وهذه صورة الأرض عامرها

³ فتحت صقلية في عهد دولة الأغالبة على يد القاضي أسد بن الفرات في (212هـ/817م)، ثم حكمها الفاطميون (296-336هـ/908-947م)، ثم حكمها الأسرة الكلبية معينة من الفاطميين لكنهم استقلوا في حكمهم لها (336-484هـ/947-1191) وخضعت تحت حكم النورمانديين (أبو خليل، 1998: 93).

وغامرهما وهي مقسومة على الممالك « (ابن حوقل، 1837: 9)، جاءت مُتقنة مدققة فيها مادة أكثر وأطول، ومزينة بالخرائط، وقد يكون هذا الفارق بسبب تنقيح ابن حوقل لما كتبه في النسخة الأولى. ويذكر كرامرز أن هناك نسخة ثالثة تعود لعام (367هـ/977م) لم تُنشر بعد (كراتشكوفسكي، 1957: 201).

يشير ابن حوقل أنه أَلَف كتاباً خاصاً عن صقلية أسماه كتاب صقلية جعله في عشرة أبواب غير أنه لم يصلنا أفاض فيه وصف أهل صقلية بكل السوء (ابن حوقل، 1992: 123).

دخل ابن حوقل صقلية في حدود (362هـ/972م) (ابن حوقل، 1992: 122) (كراتشكوفسكي، 1957: 16) كانت الجزيرة تحت سلالة بني كليب⁴ العربية التي عينها الفاطميون مكافأة لوفائهم ومساعدتهم لها في تثبيت أركانهم في المغرب الإسلامي، كانت الجزيرة آنذاك تحت سلطة الأمير أبي القاسم علي بن الحسن الكليبي (359-372هـ/969-982م).

عرّف ابن حول صقلية بأنها جزيرة على شكل مثلث متساوي الساقين زاويته الحادة من غربي الجزيرة، طولها سبعة أيام في أربعة أيام، وهي في شرق الأندلس، الغالب عليها الجبال والقلاع والحصون، وأكثر أرضها مسكونة ومزروعة، وليس لها مدينة معروفة غير بَلَرْم (*Palermo*)، قصبتها، وهي خمس حارات متجاورة غير متباينة ببعيد مسافة. (ابن حوقل، 1992: 113).

2.1. صور من أوضاع مسلمي صقلية أثناء رحلة ابن حوقل

كان طابع صقلية العام إسلامياً، فلقد وصف ذلك الراهب ثيودوريوس الكاثوليكي (ق3هـ/9م) قبل ابن حوقل بحوالي مئة سنة تقريباً حيث وصفها قائلاً إنها كانت حافلة بالناس من أهلها والغرباء حتى كأنه قد اجتمع فيها كل المسلمين من شرقٍ وغربٍ وشمالٍ وجنوبٍ، بين أهلها من الصقليين والإغريق واللمبارديين ... (إحسان، 1975: 64).

كان مسلمو صقلية من العرب والبربر والنصارى المختلفي الأصل الذين أسلموا وخاصة من الركن الغربي الشمالي الذي كان فيه المسلمون أرسخَ قديماً (كراتشكوفسكي، 1957: 29)، فضلاً عن الفرس والتتار والزنج الذين أدخلهم الأغالبة (184-296هـ/800-909م) لحراستهم، والصقالبة البيض الذين يجلبونهم عن طريق النخاسة وهم في سنٍّ مبكر من البلدان السلافية (كراتشكوفسكي، 1957: 31) (إحسان، 1975: 64)، أما أهل الذمة فكانوا من النصارى باختلاف مذاهبهم من سكان صقلية الأصليين والإيطاليين والبيزنطيين والإغريق فضلاً عن اليهود. وكانت أصول سكان صقلية تبدو كأنها جمعت كل أصول سكان العالم، فبعضهم يرتدي العباءة والعمامة، وبعضهم يلبس الجلود وفيهم أنصاف عراة وهناك وجوه مستطيلة أو مربعة أو مستديرة من كل سحنة وهيئة، ولحي من كل لون طويلة أو قصيرة (إحسان، 1975: 64).

⁴ كلب عند العرب كل سبع عقور من أسد وفهد وذئب وغير ذلك، وتنسب هذه الأسرة إلى كلب بن برة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. (البيطار، 2002: 11).

لم يكن مسلمو صقلية في تجانس وتجاور، فإننا نفهم من ابن حوقل أن كل قبيلة وجنس كان له حارات يسكنها، وكانت مساكن العرب في شمال الجزيرة، وكانت مساكن البربر بين منطقة مَزَاة ومنطقة كَرْكَنْتَة (كراتشكوفسكي، 1957: 31)، بل حتى عيون الماء والأنهار والمعادن سميت بأسماء أعيان القبائل وأصبحت خاصة، كوادي عباس ومعدن حديد بني الأغلب الذي كان يجدي عليهم الكثير، وهو بقرب قرية تعرف ببَلَهْرَا (ابن حوقل، 1992: 117). كما كان للصقالبة حارات في مدن عديدة (ابن حوقل، 1992: 114) وحارات لليهود، وحارة أخرى لهم اسمها بن جمين (ابن حوقل، 1992: 116)، بل أن حتى الأسواق كانت تتخصص لبيع منتوج واحد فهناك أسواق للقمح والطرازين والسماكين والأبزارين ... وفي أحياء خاصة.

لقد كان العرب ينقسمون إلى قحطانيين وعدنانيين، أي يمنية ومضرية، وكان هؤلاء دائماً في حروب أو على الأقل في عصبية قبلية في كل الأراضي الإسلامية، ولا شك أن عرب صقلية كانوا امتداداً لذلك، كما شهدت صقلية تنافساً حاداً بين العرب والبربر أفضت إلى بعض المناوشات في (273-274هـ/ 886-887م) (كراتشكوفسكي، 1957: 30)، وأيضاً أفضت إلى صراعات إثنية دائمة بينهما كانت سبباً في سقوط صقلية الإسلامية فيما بعد (لويس، د. ت.: 373).

نفهم من ابن حوقل أن الوضع السياسي كان مضطرباً دائماً، وأن مسلمي صقلية اعتادوا على خلع السلطان والخروج عن طاعته (ابن حوقل، 1992: 123)، وكانوا يغتابونه في سيره ويعارضون اختياراته وسياساته، وكانوا يطلقون عليه بالقبائح من ألسنتهم بمعاقبة ونكران كل محاسنه والمبالغة في قبحه (ابن حوقل، 1992: 120).

ومع هذا البعد الموجود بين عناصر سكان صقلية يتحدث ابن حوقل عن زواج المسلمين بالنصرانيات، وكانوا إذا ما أنجبوا بنتاً تبقى مع أمها النصرانية نصرانيةً، وإذا ما أنجبوا ذكراً يلحقوه بأبيه، وأطلق على هؤلاء فرقة المُشْعَمَدِين التي قد تعني المشعوذين، وكان عددهم كبير فهم أكثر أهل حصونهم وباديتهم وضياعهم، فرقة ليست من فرق الإسلام، ولا في بلد من البلدان، فهم لا يصلّون ولا يتطهرون ولا يزكون ولا يحجون، وفهم من يصوم شهر رمضان، ويغسلون من الجنابة، (ابن حوقل، 1992: 123).

يتحدث ابن حوقل عن كثرة المساجد الموجودة في صقلية رغم صغر مساحتها، ففي مدينة بَلَرْم، كبرى المدن التي يسكنها السلطان وأتباعه، ومدينة تُعرف بـ خَالِصَة يوجد ثلاثمائة وخمسون مسجداً، ويذكر منبراً أنه لم ير لهذه العدة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار التي تستولي على ضعف مساحتها شياً، ولا سمع من يدّعيه إلا ما يتذكره أهل قرطبة من أن بها خمس مائة مسجد، ولم يقف على حقيقة ذلك من قرطبة وذكره في موضعه على شك منه فيه، وهو محققه بصقلية لأنه شاهد أكثره (ابن حوقل، 1992: 15)، ويتحدث أيضاً عن المسجد الأكبر في بَلَرْم الذي بني معلقاً في سور عظيم، والذي كان بيعةً للروم قبل فتح صقلية، فيه هيكل عظيم معلق يقولون إنه للحكيم أرسطو

طاليس ت (322 ق.م)، ويذكر أنه صلى به وقدّر أنه يتسع لسبعة آلاف رجل ونيفاً، لأنه لا يتحمل أكثر من ستة وثلاثين صفّاً للصلاة، في كل صفٍّ مائتي رجل (ابن حوقل، 1992: 114).

لقد سأل ابن حوقل عن سبب كثرة المساجد في صقلية وأزعجه الجواب، فالقوم لشدة انتفاخ رؤوسهم، أي لشدة جهلهم، كان يجب كل واحد منهم أن يكون له مسجده الخاص مقصوراً عليه وعلى أسرته، لا يشاركه فيه مسلم غريب حتى إخوانه، حتى تلاصقت حيطان المساجد مع بعضها البعض لكثرتها، إلا أنها تبقى مغلوقة لا يصلي فيها أحد، فتأسيسها كان على غير تقوى، وكانت النية في ذلك التماظهر حتى يقال مسجد فلان الفقيه بن الفقيه (ابن حوقل، 1992: 115).

يذكر ابن حوقل أن بمدينة الخالصة الكثير من الرباطات للمتصوفين على ساحل البحر، وينقدها كثيراً فهي مشحونة بالرياء والنفاق والبطالين والفساق، شيوخ وشباب يتظاهرون بالتدين لأخذ الصدقات، وهم يقذفون المحصنات، وأكثرهم يُقودون ويشهدون بالزور ولا يفرقون بين فرض الوضوء وسُنَّته، إن تأسيس هذه الرباطات كان على غير تقوى ولا دين (ابن حوقل، 1992: 116)، نلاحظ أنه يوجد اختلاف في المعلومات بين مصدر ابن حوقل المطبوع في ليدن (1938) عن الرباطات الصوفية وبين طبعة ليدن (1837) التي جاء فيها: « أكثرهم يُقودون ويلوّطون وإنما أووا إلى هناك لعجزهم وعدم السكنى ومهانة أنفسهم » (ابن حوقل، 1837: 85)، وهذا لم يرد في طبعة (1938).

يتحدث ابن حوقل على معلمي الصبيان باستهزاء تام، كان عددهم يقارب ثلاثمائة معلماً، ويطلق عليهم اسم الصُّرّاع والخُباط أي المجانين، فهم لا ينفعون في شيء في التعليم، فكانوا فقط هاربين من الجهاد، « وليس كهذه العدة بمكان من الأماكن ولا في بلد من البلدان، وإنما توافرت عدتهم مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو ورغبتهم عن الجهاد » (ابن حوقل، 1992: 121)، والظاهر أنه وُجد قانونٌ يعفي المعلمين من الجهاد على الرغم من أن صقلية تعد ثغراً إسلامياً يحارب منه الروم، ولذلك هرب الكثير إلى التعليم، ولم يستفد الصبيان أبداً بحسنة منهم من جهلهم وبلادة عقولهم ونقصهم وخفة عقولهم، وكانوا كثيرين ولكثرتهم قد تمر سنة كاملة ولا يحصل أحدهم من صبيانهم عشرة دنائير (ابن حوقل، 1992: 120)، وهنا يذكر ابن حوقل أنه رأى خمسة معلمين في مكتب واحد يُعلمون فيه الصبيان، وهم شركاء متخاصمون متشاكسون على باب عين شفاء يرأسهم شيخ يُعرف بالمِلطاط وهو شيخ مشهور بنفاقه، وهو من أقدم الناس على شهادة الزور (ابن حوقل، 1992: 123)، ومع ذلك ولصغر أحلام أهل صقلية ونقص درايتهم وبعد أفهامهم، يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولُبابهم وفقهاهم وأرباب فتواهم، ويصدقون كل ما يقولونه بلا تردد (ابن حوقل، 1992: 121).

لا يفوت ابن حوقل أن يتحدث عن قلة علم هؤلاء المعلمين باللغة العربية وقواعدها، ويعطي أمثلة عن ذلك، فقد رأى ولداً يخطبهم نحو حولين يجزم الأسماء مع الصلة ويجرّ الأفعال من أول خطبته إلى آخرها، كما تحدث مع أديب من أهل الجزيرة يدعي العلم لكنه لا يفرق بين الرفع والنصب، وحينما أعطى الملاحظة لأحدهم تفاجأ أنه رد عليه: « والله يا سيدي كما تقول غير أننا نحن لا نأبه لمثل هذا » (ابن

حوقل، 1992: 121).

يتحدث ابن حوقل عن غلال الجزيرة فعلى الرغم من كثرة مياهها العذبة إلا أن الإنتاج الزراعي فيها قليل، فلم تختص صقلية بوجه من فضائل البلدان غير القمح والصوف والشعير والخمر وسكر القند والكتّان، وأضاف أن جميع ما تحتاجه الجزيرة من ضروريات تستورد من الخارج، فالجزيرة جمعت مع فساد عقول أهلها وأديانهم فساد التربة، وذكر أن سكانها عاجزون حتى على تخزين الحبوب لخفة عقولهم وكسلهم، فالقمح والحبوب، لا يحول الحول عليها عندهم إلا وقد فسدت، وربما ساست وفسدت في الأندلس قبل دخول المطامير (ابن حوقل، 1992: 124).

يتعجب ابن حوقل من عزوف الناس على شرب الماء الجاري العذب من العيون والأنهار وشربهم من الآبار الثقيلة، وذلك لأن المياه العذبة الجارية لا تروهم لكثرة أكلهم للبصل النيء كل يوم، صباحاً مساءً، الفقراء منهم والأغنياء وسائر الطبقات، حتى فسدت حواسهم منه، ويواصل تهجمه عليهم بسبب أكلهم للبصل، ويعلل أنه هو الذي أفسد تخيلهم وضرر أدمغتهم وحيّر حواسهم وغير عقولهم ونقص أفهامهم وبلد معارفهم، وأفسد سحنة وجوههم وأحال أمزجتهم حتى رأوا الأشياء أو أكثرها على خلاف ما هي به (ابن حوقل، 1992: 118).

يكرّر ابن حوقل في كل مرة وصف أهل صقلية بقلة فهمهم وثقل فطنتهم وجهلهم وسرعة طيشهم وبراعة لؤمهم مع دوام غفلتهم وبشاعة تعاطيهم وكثرة معائتهم وسخف أغذيتهم المؤكدة لجهلهم (ابن حوقل، 1992: 122)، كما أنهم لا يحبون الغريب، ولا يألّفون ولا يُؤلّفون، فيهم قلة فطنة وفهم وحدة جهل وسرعة طيش وموت يقظة، وينهي كلامه اللادع قائلاً: « وليس يشبه وسخهم في دورهم وسخ أقذار اليهود، ولا ظلّمة منازلهم وسوادها سواد الأتاتين والأفران، وأجلّهم منزلة يسرح الدجاج على مقعده وتذرق الطيور على مصلاه ومخدّته » (ابن حوقل، 1992: 125).

2. أوضاع مسلمي صقلية أثناء رحلة ابن جبير

لم يكن ابن جبير كعامة الرحالة الجغرافيين العرب والمسلمين يرتحل ليُدون رحلته على هيئة كتاب في المسالك والممالك، يدرس أثناءها الأقاليم والأعراض والأطوال والبحار والمحيطات والأنهار والمناخ...، بل كان عبارة عن مسافر يكتشف البلدان، ويُدون يومياته مباشرة كمذكرات عن كل ما يُثير انتباهه مثبتاً إياه بالتأريخ الهجري والميلادي باليوم والشهر، فاعتبرت تسجيلاته وثائق للزمان والمكان جاءت بأسلوب أدبي بليغ مفعم بالإحساس وصدق المشاعر، مكتمل الصنعة، فأدرج ضمن المنتج الأدبي العالي الجودة.

ينقسم هذا العنوان إلى عنوانين فرعيين، أولهما يتناول تعريف ابن جبير ورحلته، أما ثانيهما فيستعرض صوراً من أوضاع مسلمي صقلية أثناء رحلة ابن جبير.

1.2. التعريف بابن جبير ورحلته

هو أبو الحسن محمد بن أحمد جبير الكنانى الشاطيى البلىسى، ولد فى (540هـ/1145م) فى بلىسية بالأندلس، ينحدر من أسرة عربية عريقة، سكنت الأندلس عام (113هـ/732م) قادمة من المشرق، وتوفى بالإسكندرية فى (614هـ/1217م) (التجيبى، 1975: 243).

درس ابن جبير فى مدينة الشاطبة أين كان يعمل والده، وحفظ القرآن، ودرس الفقه والحديث، والحساب، وتبحر فى اللغة والأدب والكتابة فاحتل منصب كاتب لدى حاكم غرناطة الموحدي أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن (533-571هـ/1138-1175م) (المراكشى، 1985: 94)، واشتهر سريعاً أديباً وشاعراً تُروى له عدة قصائد متفرقة ومتنوعة جمعت فى ديوان، كما كتب العديد من الرسائل (حميدة، 1995: 401)، لقد أثنى عليه ابن الخطيب كثيراً، ورآه كريماً الأخلاق، وأديباً رائعاً، وشاعراً مجيداً (ابن الخطيب، 2001: 231)، كما نعتة التجيبى بالزاهد الأديب الفاضل (التجيبى، 1975: 243).

كان من عادة الحجاج القادمين من الأندلس أن ينتمزوا الفرصة ويمرون على المغرب وبعض جزر بحر الأبيض المتوسط ثم مصر ثم الحجاز، وبعد إتمام حَجِّهم يزورون بعض الأقاليم الإسلامية يختارونها كالشام والعراق وبلاد فارس وكان ابن جبير واحداً من بين هؤلاء.

لقد ارتحل ابن جبير ثلاث مرات للحج، أما الرحلة الأولى فقد رافقه فيها صديقه الطبيب أحمد بن حسان الغرناطي فى (578هـ/1183م)، وحسب المقرئ فقد كان دافعها طلب المغفرة من الله بعدما أجبره حاكم غرناطة الموحدي أبو سعيد عثمان لسهرة وأجبره على شرب سبعة كؤوس من الخمر صاغراً، وردّها عليه سبعة أقذاح مملوءة بالدنانير، ولم يكن يستطيع الرضى وهو حاكمه وعليه طاعته فى كل الظروف، فتألم بعد هذا من وخز الضمير وهو الرجل المتدين، وعزم على الحج لطلب للتكفير عن ذنبه (المقرئ، 1988: 385)، فحج واعتمر وزار الكثير من البلدان، وبعد غيبة دامت أكثر من عامين عاد لغرناطة (581هـ/1185م) (كراتشكوفيسكى، 1957: 299) (Dejgnat, 2017: 130). ويجب أن نذكر هنا أن *Dejgnat* يرى أن ابن جبير فى رحلته هذه كان يدعو المسلمين لمبايعة الخلافة الموحدية (515-668هـ/1121-1269م) (Dejgnat, 2017: 132)، أما الرحلة الثانية فكانت لتهنئة القائد صلاح الدين الأيوبي (532-589هـ/1138-1193) بعد استرجاعه لمدينة القدس من الصليبيين (583هـ/1187م)، فشرع فى رحلة استغرقت عامين (585-587هـ/1189-1191م). وأما الرحلة الأخيرة فكانت حزناً على موت زوجته عاتكة أم المجد (601هـ/1204م)، فحج وزار بيت المقدس، ثم استقر بالإسكندرية حتى توفى (614هـ/1217م) (كراتشكوفيسكى، 1957: 299) (Dejgnat, 2017: 31).

لقد وصلتنا من رحلات ابن جبير أخبار رحلته الأولى فقط التى وضعها فى كتاب عند رجوعه إلى غرناطة حوالى (581هـ/1185م)، لقد عُرف هذا الكتاب بعنوانين وهما: كتاب «رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك» وأيضاً «تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار»، لكن العنوان المشهور هو «رحلة الكنانى» نسبة إلى انتمائه لقبيلة كنانة العربية، وأيضاً «رحلة ابن جبير»، وعلى الرغم من كونه

شاعراً وأديباً وفقهياً لم يُنشر إلى الآن إلا بهذه الرحلة وخاصة في بلاد المغرب الإسلامي (كراتشكوفسكي، 1757:310).

لم تعش من مخطوطات رحلة ابن جبير الأولى إلا مخطوطة واحدة موجودة بلندن ويعود تاريخها إلى (875هـ/1470م)، بدأ بعض المستشرقين بترجمة الجزء الخاص بصقلية إلى الفرنسية في (1846م)، ثم قام ورايت *Wright* المستشرق البريطاني بنشرها في (1852م)، وفي (1907م) أعاد طبعها المستشرق دي خويه *de Geoe* مع تصحيحات عديدة (ابن جبير، د. ت.: 6) (رمضان أحمد، 2007: 327).

لرحلة ابن جبير أهمية قصوى إذ أنه صوّر تصويراً حياً للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في أيام رحلته للمناطق المتعددة التي زارها، فأصبحت رحلته مصدراً لكل الباحثين في التاريخ والأدب والجغرافية لهذه المناطق، وأما حديثه عن جزيرة صقلية التي دخلها عند عودته من الحج ومكث فيها حوالي ثلاثة أشهر (581هـ/1185م)، فاعتبرت وثيقة فريدة واستثناءً لم ترد إلا عند ابن جبير (كراتشكوفسكي، 1757: 301)، ويعتمد ابن جبير أسلوب الاسترسال في السرد والحكاية حتى يكاد يكون نصه نصاً سردياً قصصياً، وأيضاً يعتمد الصنعة الفنية في الأسلوب في وصف المدن والمشاهد والأحداث مصبوغاً بعاطفته الصادقة الجياشة، فهو يبكي مع مَنْ يبكي، ويتألم مع مَنْ يتألم، فلقد كتب رحلته بأسلوبين: أسلوب رواة المؤرخين الذي يتسم بالسهولة والخلو من التعقيد؛ وأسلوب بالصنعة الفنية ككتاب النثر الفني الأدبي (عبد الرزاق خليل، د. ت.: 353).

كان ابن جبير قوي العاطفة الدينية صادقاً في إيمانه، فكان تدبّنه يُحرّكه دائماً، ولا يفوته ذكر الآيات والأحاديث، كما كان دائماً يُنهي الحدث الذي يسجله بالدعاء لله تعالى والتوكل عليه جل جلاله، يدعو للمدن التي يمر بها وقد خرجت من يد المسلمين بأن يعيدها الله لهم، وعلى الأعداء بأن يُدمرهم الله، وعلى المسلمين بأن ينصرهم الله، ونلاحظ أن ابن جبير عند وصوله لصقلية سمع ورأى ما استحسنته من الملك غُليّام الثاني ولكنه عند التجوال في الجزيرة واكتشاف مآسي المسلمين فيها أصبح يسميه بالطاغية ويدعو الله أن يُريح المسلمين منه.

2.2. صور من أوضاع مسلمي صقلية أثناء رحلة ابن جبير

وقعت جزيرة صقلية تحت حكم النورماندين⁵ كاملة في (484هـ/1191م) عند سقوط آخر المدن الإسلامية نُوطس (*Noto*)، وكان النورمانديون قد تعبوا كثيراً لتحقيق هذا النصر أمام المسلمين الذين لم يكلّوا ولم يتعبوا، فلقد استمرت الحروب ثلاثين سنة من (484-454هـ/1091-1061م)، وخسر النورمانديون ما لا يُحصى من رجالهم (Laprimaudaie, 1868: 288)، عندها انتقلت صقلية حسب لغة الفقهاء من أرض إسلامية إلى أرض كافرة، وانتقل المسلمون فيها من حكام أصحاب الأرض إلى محكومين

⁵ هم مجموعة بشرية من شمال أوروبا تعرف بالفايكنج، استقرت بشمال فرنسا في منطقة لازالت تعرف باسمهم نورماندي في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين بموجب اتفاقية سان كلير التي أبرمت في (911م) في عهد ملك فرنسا الغربية شارل البسيط (893-922م) (Dudon, 1953: 19).

مأمورين يتوقعون الأسوأ القادم لا محالة.

دخل ابن جبير صقلية في عهد غليام الثاني (562-595هـ/1166-1198م) من مضيق مدينة مَسِينَة (Messina) (يوم 4 رمضان 581هـ/9 ديسمبر 1184م) قادماً من مدينة عكا على متن سفينة أنشأتها المدن الإيطالية لنقل الحجاج المسيحيين العائدين من الأراضي المقدسة والذي سماهم بالْبُلْغِيَّين⁶، والحجاج المسلمين من المغرب الإسلامي الذين كانوا يتجمعون بميناء عكا للرجوع إلى بلدانهم. كانت الرحلة طويلة وصعبة فبدلاً أن تستمر عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً، استمرت ثلاثة أشهر، ضاعوا فيها في البحر، وتكسر جزء من السفينة، وكادوا أن يغرقوا (ابن جبير، د. ت.: 294).

وصف ابن جبير جزيرة صقلية بأحسن الأوصاف فطولها سبعة أيام، وعرضها مسيرة خمسة أيام، وبها جبل البركان الذي تكسو الثلوج قممه شتاءً وصيفاً، وهي كثيرة الخصوبة، تشبه الأندلس في العمارة والرفاهية (ابن جبير، د. ت.: 297)، ويذكر في جهة أخرى أن الجزيرة كاملها أعجب بلاد الله في الخصب وسعة الأرزاق (ابن جبير، د. ت.: 302).

لقد زار ابن جبير في الثلاثة أشهر التي قضاها في الجزيرة مدينة مَسِينَة التي أرسى في مينائها، ثم انتقل إلى شُفْلُودي وثرمة (Termini) وبالرمة وعلْقمة وحصن الحمة وأطراينش (Trapani) التي انطلق منها مبحراً على سفينة من جنوة للعودة (21 ذي الحجة 581هـ/25 مارس 1185م).

لما دخل الملك النورماندي الأول روجار الأول (484-494هـ/1091-1102م) مدينة بَلَرْم (465هـ/1072م) وعد المسلمين بأن لا يؤذيه بشيء، وألا يُكره أحداً على تبديل دينه (مارتينو، 1968: 19)، كما سار ابنه روجار الثاني (494-548هـ/1102-1154م) على منهج أبيه، وسوى بين الأديان، وقرب المسلمين حتى أنه أتهم بإسلامه في السر، وسار ابنه غليام الأول (548-559هـ/1154-1166م) على نفس المنهج، وحاول الجمع بين جميع الطبقات لكن الإقطاعيين الأشراف استفحلوا وجردوا المسلمين من أراضهم (مارتينو، 1968: 21).

لقد اعتمد الملوك النورمانديون الثلاثة الأوائل الذين حكموا قبل دخول ابن جبير صقلية سياسة التسامح ظاهرياً مع المسلمين، وهذه السياسة كانت ذكاءً منهم لتثبيت دولتهم الفتية، وذلك لأن المسلمين كانوا هم أصحاب الدولة والأعلم بتسيير البلاد، وكانوا الأكثرية وأصحاب الحضارة، في حين كان النورمانديون أقلية ولم تكن لهم حضارة تُعتمد، فاستغلوا جهد المسلمين وحضارتهم في جميع المجالات حتى الحربية منها، ولا نتوقع غير ذلك، وهذا ما جعل البعض يعتقد أن حكم النورمانديين كان هشاً لاعتمادهم الكبير على المسلمين، وأنهم ظلوا دائماً يرون أن المسلمين على جاهزية لاسترجاع الجزيرة في حال ظهر أي ضعف منهم (Dejugnat, 2017: 132).

⁶ هو تعريب حرفي للكلمة اللاتينية (peregrin)، أو الكلمة الإيطالية (pellegrin)، ومعناها الحج باللغتين (زيادة، 1939: 19).

كان ميثاق التعايش الذي أبرمه روجار الأول يخص المدن الكبرى كبلرْم التي دخلوها حرباً وأبرم مع المسلمين فيها صلحاً، ولم يخص المدن الصغيرة والقرى والضياح والمزارع التي استسلمت دون حرب فأصبحوا سكانها عبيداً للإقطاعيين بعدما صودرت أراضيهم وخُربت ممتلكاتهم ومواشيهم، وفرضوا عليهم ضريبة على الرؤوس مرتين في السنة، كما فتح روجار الأول الباب للأوروبيين للاستيطان حتى يُصبحون الأغلبية ويغيرون ديمغرافية الجزيرة، وأقر الإقطاعية، ووزع أراضي المسلمين على أصحابه من الإقطاعيين والأشراف بما فيها من المزارعين الذين أصبحوا عبيداً فيها، وأقر ذلك في اجتماع (866هـ/1093م)، وأدى هذا إلى فقدان المسلمين لأراضيهم وممتلكاتهم لصالح النبلاء والمزارعين النصارى ورجالات الكنائس، وحُوّلت الكثير من المساجد إلى كنائس وأديرات، كما باع النورمانديون أسرى المسلمين عبيداً في إيطاليا، أما المزارعين الكادحين في الأراضي فجعلوهم رقيقاً لأصحاب الأرض الجدد (عزيز، 1980: 80).

لم تكن سياسة النورمانديين مع مسلمي صقلية واحدة بل كانت تختلف من مدينة إلى أخرى، ومن منطقة إلى أخرى، كما أن وقت الاسترداد تزامن مع الحروب الصليبية وكان المسيحيون مشحونين بالروح الدينية والعداوة ضد الإسلام، فسياسة روجار الثاني تحولت إلى الاضطهاد الديني في (548هـ/1153م) حينما اشتدت الحروب الصليبية واشتدت التعبئة من الامبراطور البيزنطي منويل كومنينيوس (1118-1180م)، وبدأ روجار الثاني سياسة التنصير.

لقد كان لانتصار الموَحدين (515-674هـ/1121-1275م) في مدينة المهديّة (554هـ/1159م) وطردهم للنورمانديين منها أثراً سيئاً على مسلمي صقلية، فلقد قام البارونات الإقطاعيون وشدّدوا الاضطهاد على المسلمين وجردوهم من أسلحتهم، وصادروا ممتلكاتهم، وأخذوا أموالهم وحريمهم، وأتخنوا فيهم قتلاً وذبحاً في شوارع بلرْم، بدأوا بقتل المسلمين الذين كانوا في قصر الملك، ومَن كان في الدواوين منهم، ومَن كانوا في الحوانيت والفنادق، ونزعوا الأكفان عن موتى، وكان القتل كثير، فثار المسلمون واعتصموا في الجبال والغابات هرباً عن أنظار المسيحيين، وبعضهم لجأ إلى قلعة في جنوب صقلية كان يسكنها مسلمون، والبعض الآخر هاجر إلى البلدان الإسلامية وذلك في (557هـ/1161م) (ابن الاثير، 1987: 413) (عزيز، 1980: 82) (إحسان، 1975: 149).

لقد كانت سياسة الاضطهاد سبباً في هجرة المسلمين الكثيفة والمستمرة للأراضي الإسلامية وخاصةً شمال إفريقيا والأندلس والمشرق التي بدأت (460هـ/1068م) واستمرت طوال فترة الاسترداد النورماني، ثم زادت بعد القمع (548هـ/1153م) وبعد المذابح التي تعرض لها المسلمون في (556هـ/1616م)، و(585هـ/1190م) (عزيز، 1980: 86)، فلم تكن نية النورمانديين حسنة وهذا ما تنبه له ابن الأثير وذمَّ رجار الأول وذكر أنه أسكن الجزيرة للروم والفرنج، ولم يترك لأحد من أهلها -يقصد المسلمين- حَمَماً ولا دُكَّاناً ولا طاحوناً (ابن الأثير، 1987: 474)، وذمَّ غليام الأول وذكر أنه كان فاسدَ التدبير سيئ التصوير (ابن الأثير، 1987: 39)، ولا يُمكن الوثوق هنا بما ذكره الإدريسي من مدح لروجار الأول الذي ذكر أنه نشر العدل في أهلها وأقرهم على دياناتهم وشرائعهم، وأمنهم في أنفسهم وأولادهم

وممتلكاتهم، ونعتبر هذا المدح تملقاً لأنه كان في خدمتهم وكانوا يغدقون عليه بالمال والفضة والذهب حتى يصنع لهم خريطة بطلب من رجار الثاني (الإديسي، 2002: 489).

لم يختلف الوضع مع غليان الثاني⁷ (559-584هـ/1166-1189م) فلقد سجل لنا ابن جبير وضعين مختلفين ومتناقضين يعيشه مسلمو صقلية حسب المناطق التي كانوا يعيشون فيها، ففي بعض المدن الكبرى كبلرْم كانوا ينعمون بالتسامح الديني ومظاهر الرضى ظاهرياً مع تجاوزات واضحة، فحتى أصحاب المناصب العالية من المسلمين كانوا مغلّبين على أمرهم، فكانوا يعيشون حياة مقبولة لكنها غير مطمئنة وغير مستقرة، أما في المدن الصغيرة والقرى والأرياف والمزارع فكانوا صاغرين مضطهدين من قبل الإقطاعيين والنبلاء والكنائس، فُرضت عليهم إتاوة في فصلين من العام يؤدونها، ومن لم تصادر أرضه ضُيقت عليه سعتها (ابن جبير، د. ت.: 297).

لقد وصف ابن جبير الملك غليان الثاني بإعجاب عند أول وصوله، فقد تصادف أن نزول ركاب السفينة كان متزامناً مع وجود الملك في ميناء مَسِينَة لمراقبة أسطوله الذي أنشأ فيها، وهذا الحدث منع النصارى من نهب مَنْ كان على المركب واستعباد جميع المسلمين الذين كانوا فيه، وكانت هذه عادتهم، بل أن الملك دفع لأصحاب الزوارق حق توصيل فقراء المسلمين وخاصة أنهم أغلوا على الناس، ولو لم يكن موجوداً كان النصارى قد أخذوهم كما اعتادوا كلهم عبيداً، بل كل المسلمين (ابن جبير، د. ت.: 295).

رأى ابن جبير وليام الثاني حَسَنَ السيرة لأنه يثق في المسلمين ويستعملهم في مهامه، من قادة ووزراء وحجاب وخاصة، وحتى في مطبخه حيث كان المسؤول عن مطبخه مسلماً، وكان له جملة من العبيد السود من المسلمين أيضاً، كما كان فتياناً وهم عيون دولته وجواسيسه مسلمين أيضاً، يصومون ويتصدقون ويفعلون الخير ما استطاعوا، كما كان له دواوين يشرف عليها المسلمون ومن بينها ديوان الطراز الذي كان يشرف عليه يحيى بن فتيان الطراز الذي كان يطرز ملابس الملك بالذهب، وكانت جواريه وحظاياهم مسلمات، بل أن أي إفرنجية من النصرانيات تقع في قصره سرعان ما تُسلم لأن الغالب عليه الدين الإسلامي، ومع ذلك الكل كان يكتُم إيمانه خوفاً (ابن جبير، د. ت.: 297)، ويذكر ابن جبير أنه سمع أن زلزالاً هز الجزيرة يوماً، فسمع الملك الذكر والدعاء لله يملأ القصر من قبل خدامه المسلمين، وفجأة وجدوه أمامهم، فذهشوا وخافوا لكنه هدأ الجو بالقول كل واحد منكم يذكر معبوده كما يشاء (ابن جبير، د. ت.: 299).

كان لا يزال طابع الحكم في صقلية في عهد وليام الثاني إسلامياً حيث كان الملك يتشبه بملوك المسلمين في الأبهة والترف وترتيب القوانين وتنظيم المراتب وتشجيع العلماء والأطباء والمنجمين، وكان

⁷ توفي غليان الثاني ولم يترك وريثاً فأوصى بابنة روجار الثاني بعده كونستانسا ملكة زوجة الإمبراطور الألماني هنري السادس (1190-1197م)، لكن أراء النبلاء انقسمت حولها فأصبح تانكريد ملكاً وهو الابن غير شرعي لأحد أبناء روجار الثاني، توفي في (1194م) وخلفه ابنه وليام الثالث لكن الإمبراطور الألماني هنري السادس استولى على الجزيرة في نفس سنة تعيينه وانتهى حكم النورمانديين في صقلية (عزيز، 1980: 72).

يكتب ويقرأ بالعربية وكانت شارة ملكه التي يعتمدها : الحمد لله (ابن جبير، د. ت.: 289)، بل حتى جيوشه الذين يعتمد عليهم في حروبه كانوا مسلمين (ابن جبير، د. ت.: 312)، بل أن حتى النصرانيات خارج قصر الملك كنَّ يُقلدن المسلمات، فكُنَّ فصيحيات اللسان، ملتحات ومنقبات، رآهن ابن جبير قد خرجن في عيد ميلاد المسيح في أبهى صورة، لبسن الحرير المذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وانتقبن بالنقب الملونة، ووضعن الحلّي والعطور (ابن جبير، د. ت.: 307).

يذكر ابن جبير أن بمدينة بلزم، التي شَبَّها بِقَرْطُبة، لا يزال بها كثافة من المسلمين لهم أرض يسكنونها بعيداً عن النصارى، لهم فيها أسواق عامرة وهم تجار فيها، ولهم بها قاض يحكم عليهم فيها، ولهم مساجد يقيمون فيها الصلاة بأذان مسموع، لكنهم ممنوعون من خطبة الجمعة، لكن الخطبة مسموحة في الأعياد فقط، وكانوا يدعون للخليفة العباسي (ابن جبير، د. ت.: 305)، ويواصل ويذكر أن المساجد في بلزم كثيرة أكثرها يتم فيها تعليم القرآن، وأن المسلمين كانوا ينظرون لمن هو في خدمة الكفار غرباء عنهم وغير موثوق فيهم (ابن جبير، د. ت.: 306).

انتقل ابن جبير إلى مدينة شفلودي وهي مدينة ساحلية، يسكنها القليل من المسلمين، وكان فيها قلعة لم ير أمتع منها، فيها أسطول جاهز لحرب المسلمين الذين قد يفاجئون النورمانديين من البحر كما كانوا يتوقعون (ابن جبير، د. ت.: 301).

في مدينة ثرمة وجد ابن جبير أن للمسلمين ربضاً كبيراً، لهم فيه مساجد، وفيها قلعة سامية منيعة وفي أسفلها حمة مياه، ويقدم هنا صورة للتعايش الذي لاحظته حينما مرت عليهم طوائف من النصارى وبادروهم بالسلام واللطف والمؤانسة حتى أنه اعتقد أنهم يصبون من سلامهم هذا إلى فتنة المسلمين الجاهلين في دينهم وهم صائمون في منتصف شهر رمضان (ابن جبير، د. ت.: 302).

على فرسخ من مدينة ثرمة منطقة قصر سعد المطل على البحر، كان لا يزال مُلكاً للمسلمين، حوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة والورع، وبه مسجد من أحسن مساجد الدنيا لا يزال يرفع فيه الأذان وكان قد طال عهده بسماعه في صقلية، كانت تقام فيه صلاة التراويح، وكان لا يزال المسلمون في تآزر حيث ضيفوه هو وصديقه وآخرين في المسجد وأكرمهم (ابن جبير، د. ت.: 303)، كما كانت هناك منطقة أخرى بنحو ميل من مدينة ثرمة تُعرف بقصر جعفر، حاول الدخول إليها لكنه مُنع وتعرض للمساءلة من قبل الحراس لأن الملك غيلام الثاني كان له فيها قصر يقيم فيه ومجلس يستقبل فيه أعضاء حكومته، وهنا دعا ابن جبير على الملك: « أراح الله المسلمين من ملكه » (ابن جبير، د. ت.: 303).

لم يكن وضع المسلمين في مدينة مَسِينَة كما كان في الحاضرة بلزم ومدينة ثرمة، فكانت مشحونة بعبدة الصُلبان، وكان فيها المسلمون نفرًا قليلاً فقط من ذوي المهن لا يُقرّ لمسلم فيها قرار، ولذلك يستوحش فيها المسلم الغريب ويخاف، فهي موحشة لا يوجد فيها للغريب أنس ومع ذلك يستدرك ويذكر أنها لا يزال فيها للغريب أمان (ابن جبير، د. ت.: 296).

لقد كان مسلمو مدينة مَسِينَة يكتمون إسلامهم ويتظاهرون بالنصرانية كوسيلة للبقاء فيها، فابن

جبير يقدم لنا شهادة لأحد وجوههم وكان اسمه عبد المسيح أباح له بهذا السر وعبر له عن غيرته منه لأنه لا يستطيع إظهار إيمانه مثله، فهو معتقل في مملكة كافر الذي وضع في أعناقهم ربة الرق، ولذلك هو يتبرك بلقاء أمثاله من الحجيج (ابن جبير، د. ت.: 299)، يذكر ابن جبير أن جميع خدمة الملك يتظاهرون بالنصرانية وعند وقت الصلاة يخرجون فراداً من مجلسه ليقتضونها، وقد يُكتشف أمرهم، فتمنّى لهم ستر الله (ابن جبير، د. ت.: 300).

كانت مدينة مَسِينَة ميناءً مقصداً للجواري والعبيد، وكانت هذه التجارة رائجة فيها، وكان بعض النصارى معتادين على مراقبة السفن الآتية لاستعباد راكبها المسلمين (ابن جبير، د. ت.: 295)، فلقد كان العرف التجاري يسمح بان يباع الحرُّ عبداً، ووجدت وثائق من (ق 6هـ/12م) تثبت ذلك رسمياً (إحسان، 1975: 143).

يتحدث ابن جبير على مدينة أَطْرَابَنْش التي قصدها للعودة إلى الأندلس، وهي شبه جزيرة تَفْصَلُها عن تونس مسيرة يوم واحد، والسفر فيها دائم صيفاً وشتاءً، سكانها مسلمون ونصارى، فيها مساجد وكنائس، فيها حصنٌ في أعلى الجبل لا يتركون مسلماً يقترب منه، وهم في حالة تأهب لأي غزو من المسلمين الذين سيصلون إلى المدينة أولاً لأنها الأقرب لهم، فعندها يأخذ النورمانديون حريمهم إليه ويقطعون القنطرة (ابن جبير، د. ت.: 309).

لقد هلَّ هلالُ عيد الفطر وابن جبير في أَطْرَابَنْش، صلى بأحد مساجدها، وخرج أهل البلدة المسلمون يحتفلون بالعيد بالطبول والبوقات، وغض النصارى بصرهم عنهم وتركوهم يحتفلون (ابن جبير، د. ت.: 310). ولحسن الحظ أن الشتاء كان قاسياً في هذه السنة ولم يُبحر مركبٌ جنوى، فمكث ابن جبير ينتظر في أَطْرَابَنْش وعَرَفْنَا أكثر على حال المسلمين السيئ، وما كانوا عليه من دُلٍّ ومسكنة وهم يعيشون بين النصارى، وتحدث على التنصير القسري الذي كان يُجرى في الجزيرة، وأعطى مثلاً وقع لأحد فقهاء اسمه ابن زُرعة الذي انغمس في النصرانية وحفظ الإنجيل، وطالع سير الروم، وحفظ قوانين شريعتهم، فأصبح قسيساً يستفتونه الناس، وكان له مسجد فحوّله إلى كنيسة، لكنه ظل يفتي بأحكام الشريعة الإسلامية، والصحيح أنه كان كاتماً لإسلامه (ابن جبير، د. ت.: 313).

تحدث ابن جبير عن شخصية أبي القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر وابن حمود الذي يذكر أنه كان زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم وقائدهم، غير أن ابن ظفر الذي كان صديقاً له يذكر أنه كان زعيم المسلمين وممثلهم لدى النورمانديين منذ عهد غليام الأول، اتهموه بأنه اتصل بالموحدين أعداءهم حينما فتحوا مدينة المهديّة وطردوهم منها (554هـ/1159م)، وتعرض ابن حمود لأسوء معاملة منهم، طردوه من منصبه واستولوا على كل ممتلكاته حتى التي كان قد ورثها من أجداده حتى أصبح فقيراً، وكان قد أشفق عليه ابن ظفر وكتب له « سلوان المُطاع في عدوان الأتباع » يتضمن خمسة سلوانات ينصحه فيها ويصبره ويُسلية (ابن ظفر، 1297: 4) (بوجمعة، 2022: 147)، والظاهر أن غليان الثاني قد أعاد له بعض مهامه كالاتّماع بالمسلمين، فزار أَطْرَابَنْش، وتحدث مع ابن جبير، فأخبره عن

الواقع السيئ للمسلمين في الجزيرة ما يبكي العيون دماً، ويذيب القلب ألماً، وذكر له أنه يتمنى أن يكون عبداً يُباع إلى أرض إسلامية على أن يبقى في صقلية حُرّاً، فحتى كبار المسؤولين لدى النورمانديين كانوا مملوكين مغلوبين على أمرهم، فيتساءل ابن جبير عن حال عامة المسلمين إذن؟ وتأثر بالموقف وفارق الرجل باكياً مبكياً (ابن جبير، د. ت.: 314)، وعلى ما يبدو فإن هذا الرجل كان مضغوطاً جداً من النصاري الذين كانوا يعتقدون أنه لو تنصّر لتنصّر كل مسلمي صقلية أجمعين (ابن جبير، د. ت.: 315). وكان تنصير المسلمين على أشده، فكان إذا ما غضب أب على ابنه أو زوجته، أو غضبت الأم على ابنتها يهرعون للكنيسة التي تستقبلهم بترحاب، فيتنصرون ويُعمّدون. (ابن جبير، د. ت.: 315).

كان أهل بُعد النظر يدركون أن نهاية المسلمين في صقلية اقتربت، وكانوا يخشون أن يقع بهم ما وقع لمسلمي جزيرة أقریطش (كريت) بعد أن استولى عليها الروم (350هـ/960م) ونصّر فيها المسلمون عن آخرهم إلا من هرب منهم (ابن جبير، د. ت.: 315).

من أشد المشاهد التي تأثر بها ابن جبير وهو يبرئ نفسه لركوب السفينة للعودة، والتي أذابت قلبه رافةً وحناناً هو أن رجلاً من الأعيان وجّه ابنه إلى أحد الحجاج المسافرين مصطحباً أخته الصغيرة التي قارب سنّها من سن الإدراك، طالباً منه أن يتزوجها، وإن لم يرغب فيها يُزوجها أحداً من أهل بلده، المهم أن يبعدها عن هذه الفتنة (ابن جبير، د. ت.: 316).

كان ابن جبير كلّما تعمق في حياة مسلمي صقلية يدرك مدى معاناتهم، سواءً إن كانوا من الناس البسطاء أو من الأعيان، ولذلك نجد أن الإعجاب بالملك غليام الثاني الذي عبر عنه عند نزوله في ميناء مسينة قد تلاشى وبدأ يُعبّر عن كرهه له بقدر كبير من الدعاء عليه، فأكثر من: «أباده الله، وأراح المسلمين منه، وأراح الله المسلمين من ملكه، وخيب الله قصده»، ونعته بـ «الغليظ والكافر والطاغية»، فابن جبير لم يَكْفِه الظاهر بل تعمق في سبّ أغوار المسلمين في صقلية ومشاعرهم وهو الشاعر الأديب الذي يرى بمشاعره.

أقلعت سفينة عوذة ابن جبير في يوم الإثنين (21 ذي الحجة 581هـ/25 مارس 1185م)، وازداد حال المسلمين في صقلية سوءاً بعد وفاة غليام الثاني وتعيين الملك تانكريد الذي كان يُحب كسب الرأي العام لمسيحي صقلية، فانفجرت الأوضاع، وتعرض المسلمون لمذابح دامت قرابة سنة انطلقت من بلّرم وعمت الجزيرة من (585هـ/1189م) حتى (586هـ/1190م)، واعتصم من نجا في الغابات والجبال كما شارك فيها عبيد الأرض من المسلمين، انتهت بإرغامهم على العودة لحياتهم، غير أن الضغط زاد عليهم كثيراً بهدف إجلائهم من الجزيرة، فاختر الكثير منهم الهجرة إلى الأراضي الإسلامية (إحسان، 1975: 154).

الخاتمة

لم يُثنِ ابن حوقل نهائياً على مسلمي صقلية بل وصفهم بأوصاف لاذعة في كل تصرفاتهم، فهم لم يكونوا مجتمعاً متجانساً في حياتهم، وكانت بوادر سقوط دولتهم واضحة لا محالة ومنذ دخولهم للجزيرة، حيث كانت هناك عصبية قَبَلية بين اليمنيين والمضريين، وكانت هناك صراعات بين العرب والبربر، وكان لكل عنصر من عناصر السكان أحياء ومدن خاصة بل لم يجتمعوا حتى في المساجد، حيث كان لكل واحد مسجده الخاص يصلي فيه بعيداً عن الناس هو وأسرته، فضلاً على هذا كانوا معتادين على معارضة السلطان والنفاق الديني والكسل والجهل وخفة العقول.

لم تكن سياسة النورمانديين مع المسلمين سياسة واحدة عامة وشاملة بل تختلف من مكان إلى آخر، فالمدن الكبرى كبلرم التي حارب سكانها النورمانديين حتى النهاية أبرم معها ملوك النورمان ميثاق صلح تضمن الحماية والحرية الدينية، أما القرى والأرياف والمزارع التي استسلمت مباشرة جعلوا المزارعين فيها ومزارعهم ملكاً للإقطاعيين والنبلاء، كما جعلوا سكانها عبيداً يبيعوا في إيطاليا، والحديث عن التسامح الديني واستعمال المسلمين في الوظائف والجند، وبقاء الصبغة الإسلامية العربية لم يكن إلا تعبيراً عن براغماتية الملوك الذين لم تكن عندهم حضارة ولا علم بسياسة الدولة والتدبير الحربي فاستغلوا المسلمين لتثبيت دولتهم الفتية، فقد اكتشف ابن جبير أن كل المسلمين سواء كانوا من الأعيان أو من الطبقات السفلى عبيدٌ يُستبدُّ بهم في أي مكان وأي وقت.

إذن لقد كانت صقلية الإسلامية آيلة للسقوط لا محالة منذ رحلة ابن حوقل في (362هـ/972م) ما جعله يكون قاسياً في النقد والشتم لعلَّ الناسَ تتنبه للخطر المحدق، لكنهم استمروا في صراعهم وعصبيتهم وكسَلهم ونفاقهم وغبائهم، فنجح النورمانديون في السيطرة على الجزيرة بكاملها في (484هـ/1191م) بعد حروب دامت ثلاثين سنة انتقل فيها المسلمون من حكام إلى محكومين.

لقد وجد ابن جبير المسلمين أثناء رحلته (581هـ/1184م) في منتهى الإذلال، حتى الأعيان منهم يتعرضون للتنصير عنوةً، وللمذابح وللتصفية العرقية، حتى أصبحوا أقلية أمام كثافة سكانية أوروبية شجعها النورمانديون على الاستقرار، وأصبح المسلمون أمام اختياريين، أخلاهما مرُّ، إما التنصير أو الزوج القسري.

الببليوغرافيا

المصادر

باللغة العربية

1. ابن الأثير، عز الدين. (1987). الكامل في التاريخ. بيروت. دار الكتب العلمية .
2. ابن الخطيب، لسان الدين. (2001). الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة، مكتبة الخانجي.
3. ابن جبير الكناي. (د.ت). رحلة ابن جبير. بيروت، دار صادر.
4. ابن حوقل، أبو القاسم النَّصْبِي. (1873). المسالك والممالك. مدينة ليدن.

5. ابن حوقل، أبو قاسم النَّصَّيبي. (1992). صورة الأرض. بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة.
6. ابن ظفر الصقلي. (1297هـ). سلوان المطاع في عدوان الاتباع. تونس، المطبعة التونسية.
7. أبو الفدا، عماد الدين. (1840). تقويم البلاد. باريس، دار الطباعة السلطانية.
8. الإدريسي الحسيني، أبي عبد الله. (2002). نزهة المشتاق في اختراق الأفاق. القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.
9. التجيبي، القاسم بن يوسف. (1975). مستفاد الرحلة والاعترا. تونس، الدار العربية للكتاب.
10. الحموي، ياقوت. (1993). معجم البلدان. بيروت، دار صادر.
11. المراكشي، ابن عذاري. (1985). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
12. المقري التلمساني. (1988). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ج. 1، بيروت، دار صادر.

باللغة الأجنبية

1. Dudon de Saint-Quentin (1953). Historia normannorum. Paris, Presses universitaire de France.

الدراسات (كتب ومقالات)

باللغة العربية

1. أبو خليل، شوقي. (1998). فتح صقلية بقيادة الفقيه المجاهد أسد بن الفرات، دمشق، دار الفكر.
2. إحسان، عباس. (1975). العرب في صقلية دراسة في التاريخ والأدب. القاهرة، دار الثقافة.
3. آقابرزك الطهراني. (1983). الذريعة إلى تصاريف الشيعة. بيروت، دار الأضواء.
4. الإبيش، أحمد، والشهابي، قتيبة. (1998). دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين: من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر للهجرة. ج. 1. دمشق، منشورات وزارة الثقافة.
5. بوجمعة، جهيدة. (2022). الفكر السياسي عند ابن ظفر الصقلي المكي الحموي (497-565هـ/1104-1170). مجلة عصور جديدة. 12(1)، 144-160.
6. بوجمعة، جهيدة. (2024). الصين في مصنفات المسعودي. في بوبكر العربي (محرر) العالم الإسلامي والصين على طريق الحرير (52-65). المدينة، منشورات مخبر الدراسات التاريخية المتوسطة عبر العصور.
7. البيطار، محمد شفيق. (2002). شعراء بني كلب. بيروت، دار صادر.
8. حاجي خليفة. (1990). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بيروت، منشورات الفكر.
9. حميدة، عبد الرحمن. (1995). أعلام الجغرافيين العرب. دمشق، دار الفكر.
10. حوالة، يوسف بن أحمد. (1992). ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للجناح الغربي من الدولة الإسلامية. الكويت، الجمعية الجغرافية الكويتية.
11. رمضان أحمد، أحمد. (2007). الرحلة والرحالة المسلمون. القاهرة، دار البيان العربي.
12. زيادة، محمد مصطفى. (1939). رحلة ابن جبير وابن بطوطة. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
13. عبد الرزاق خليل، أحمد. (2011). جماليات المكان في رحلة ابن جبير الاندلسي. مجلة مداد الأدب، 1(1)، 338-365.

14. عزيز، أحمد. (1980). تاريخ صقلية الإسلامية. طرابلس، الدار العربية للكتاب.
15. عواد، ميخائيل. (1939). ابن حوقل. مجلة الرسالة (323). القاهرة، منشورات الرسالة.
16. كراتشكوفيسكي، أغناطيوس. (1957). تاريخ الأدب الجغرافي العربي. القاهرة. جامعة الدول العربية.
17. لويس، أرشيبالد ر. (د.ت). القوى البحرية التجارية في حوض البحر المتوسط (500-1100م). (ترجمة أحمد محمد عيسى). القاهرة. مكتبة النهضة المصرية.
18. مارتينو، ماريو. (1968). المسلمون في صقلية. بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية.
19. المدني، أحمد توفيق. (د.ت). المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا. الجزائر. المطبعة العربية.
20. المشري، محمد عمر. (1998). بلاد القرن الإفريقي، نصوص من المصادر العربية. طرابلس، وحدة الكتاب للنشر.
21. المنوني، محمد. (2014). المصادر العربية لتاريخ المغرب. الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

باللغة الأجنبية

1. Elie de La Primaudaie, M. F. (1868). Les arabes en Sicile et en Italie, les Normands en Sicile et en Italie. Paris, Challamel ainé, libraire-éditeur.
2. Garcin, J. C. (1983). Ibn Hawqal, l'Orient et le Maghreb. Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, (35), 77-91. <https://doi.org/10.3406/remmm.1983.1982>

القواميس والموسوعات

باللغة العربية

1. ابن منظور، جمال الدين. (د.ت). لسان العرب. بيروت، دار صادر.
2. الزركلي، خير الدين. (1980). الأعلام. بيروت، منشورات دار العلم للملايين.

باللغة الأجنبية

1. Dejugnat, Y. (2017). Ibn Jubayr. In K. Fleet, G. Krämer, D. Matringe, J. Nawas, and D. J. Stewart (Eds.), Encyclopaedia of Islam: Three (pp.129-132). Brill. https://doi.org/10.1163/1573-3912_ei3_COM_30845